دور الفقهاء في السياسة المرابطية وإحراق كتاب إحياء علوم الدين

د. أسامة عبدالحميد حسين السامرائي

Role of scholars in the Al Moravia policy and the burning of (revive of religious science) book

Usamah Abdul- hameed Al-samraiy (phd)

It is a research that the researcher speak about the accelerating role that the scholars conducted the Al Moravia policy and on the Al Morava's rollers in Morocco territory on north of Africa specially in the period of the Amir (Ali Bin Yusif Bin Tashfin) where they adopted the Al Maliky doctrine and its branches and they forced to the public life and they fight the territories and doctrines that adopted other doctrines those scholars found in the Al Asharii doctrine their weapon lacked against their opponents ...Their growing role on the Amir Ali Bin Yusif lead to inhibits the reputations of the Al Moravia state when he ordered in (٥٠٣) H to burn the (revive of religious science) book for his Author (Abo Hamid Al Ghazali)on the public in the mosque courtyard of the Qurtoba Mosque

بسم الله الرحمن الرحيم

المقـــدمـــة

الحمد لله رب العالمين حمداً يوافي نعمه ويكافئ مزيده ، والصلاة والسلام على خيـر عباده واكرم خلقه وخاتم انبيائه ورسله محمد (صلى الله عليه وسلم) .

كانت الدولة المرابطية في المغرب تقوم على ازدواجيـة احـد طرفيهـا الفقهـاء ، والطرف الآخر القبائل الصحراوية ، وهي ازدواجية تجلت في علاقة عبد الله بن ياسـين بيحيى بن ابراهيم الدكالي ثم سار عليها فيما بعد أمراء المرابطين وفقهائهم ، ولا مغـالاة في القول ابداً بأن دولة المرابطين دولة فقهاء ، ولم تكن القبائل الصحراوية التـي قامـت على اكتافها الدولة ألا جهازها التنفيذي . أدى الفقهاء المرابطيون دوراً أساسياً وفعالاً فـي توجيه السياسة المرابطية بألاتجاه الذي يرونه يتماشى ويتناسب مع اتجاهاتهم الدينية فلقـد كان لهم باع طويل في اتخاذ القرارات السياسية والدينية التي كانوا يملونها علـى الأميـر علي بن يوسف بن تاشفين والتي كان لها آثار ونتائج سياسية سلبية قد أدت إلى أفول نجـم الدولة المرابطية وزوال ملكها[١].

كان المذهب المالكي هو المذهب الرسمي للدولة المرابطية كان قائماً على مبدأ منـع التأويل وتفسير المتشابه من الآيات القرآنية وتحريم علم الكلام في كافة مدارس الدولة وقد اهتم هؤلاء الفقهاء بكتب الفروع (فروع الأمام مالك) إذ عملوا بمقتضـاها ونبـذوا مـا سواها[٢] . كان لهذا المسار الذي سار عليه المرابطون فقهاء وساسة اثر كبير في بـروز من يعارض ويصارع هذا المسار وقد تمثلت هذه المعارضة بشخص محمد بـن تـومرت (مؤسس الدولة الموحدية) إذ استغل هذا الصراع العقائدي ، وان كان يخبئ وراءه بـلا شك صراعاً سياسياً مع فقهاء المالكية والسلطة السياسية القائمة لمواجهة الدولة المرابطية.

كان لفقهاء الدولة المرابطية تأثير واضح المعالم على شخصية الأمير إذ اجبروه على إصدار امر يقضي بحرق كتاب إحياء علوم الدين للأمام الغزالي وكان لهذا الآمـر اثـر بارز في سقوط الدولة المرابطية[٣] وكان أمر الإحراق هذا قد صدر بموجب فتـوى مـن

قبل الفقيه القاضي ابن حمدين قاضي قرطبة ، الا ان هذا الامر لم يمر دون معارضة من قبل بعض الفقهاء في المغرب والأندلس إذ ناصروا الأمام الغزالي وكتابه الأحياء .

كان ما سبق مقدمة وموجزاً لهذا البحث فأن جاء وافياً بالمطلوب محققاً للغاية فبعناية الله ومنه ، وان جانب ذلك فحسبي أني قد اجتهدت .

تمهيد :

نجح المرابطون في حفظ البلاد من الأخطار الخارجية بواسطة الجهاد ، كما نجحوا في حفظها من التفكيك الداخلي عن طريق أقرار سياسة إدارية وقضائية دقيقة ، إلا إن الوحدة الدائمة والاستقرار الحقيقي يجب أن تتوفر له شروط أخرى وذلك ما أدركه المرابطون ، فصاروا من اجل هذه الغاية يدعمون أعمال الفقهاء الرامية إلى محاربة كل ما هو خارج عن المذهب المالكي ، مذهب الدولة الرسمي . من المعلوم أن من أسباب التفكك السياسي في بلاد المغرب العربي قبل تولي الدولة المرابطية السلطة ، وجود الخلافات المذهبية ، بلا تناحر تلك المذاهب فيما بينها لاسيما في الربع الأول من القرن الثاني للهجرة إذ ((إن افريقيا وما وراءها من المغرب فقد كان الغالب عليها في القديم مذهب الكوفيين إلى ان دخل علي بن زياد وابن أشرس والبهلول بن راشد وبعدهم أسد بن الفرات وغيرهم بمذهب مالك))[٤] .

يمكن أن نعد كفاح الفقهاء من اجل اقرار المذهب المالكي عقيدة وتشريعاً ، في المغرب العربي واجهة من واجهات الكفاح السياسي العام الذي خاضته الدولة المرابطية ساسة وفقهاء، ضد الدويلات والمذاهب التي اعترضت المذهب في مسيرته . ولما كان المذهب المالكي قد وجد في المذهب الاشعري السلاح الذي كان ينقصه لمواجهة خصومه، فأن كبار فقهاء المذهب المالكي اعتنقوا مذهب ابي حسن الاشعري ويوضح القاضي عياض هذه القضية بقوله: ((فأهل السنة من المشرق والمغرب بحججه يحتجون وعلى مناهجه يذهبون))[٥] .

ومما لاشك فيه ان تسخير الفقهاء لامكانات الدولة المرابطية كان عاملاً حاسماً في إقرار المالكية بالمغرب بصفة نهائية ، غير ان اتصال المغرب بالأندلس ، وهي قد اختارت المذهب المالكي منذ وقت مبكر ، قد ساعد على ذلك[٦] ، وكذلك ارتباط هذا المذهب بالأصل (القرآن الكريم والسنة النبوية) ووضوح معالمه الاعتقادية و انسجامة

مع عقيدة آهل السنة والجماعة، كما ان للرحلات التي كان يقوم بها المغاربة الى المشـــرق لاداء فريضة الحج والتقائهم باتباع الأمام مالك اثر بالغ في نشر هذا المـــذهب فـــي بـــلاد المغرب فضلاً عن طبيعة المجتمع المغربي القريبة الشبه بالمجتمع الحجازي مـــن حيـــث سيادة روح البداوة والالتقاء في العادات والتقاليد[٧].

مكانة الفقهاء عند الأمير علي بن يوسف بن تاشفين :

ان فقهاء المالكية سواء في المغرب أم الأندلس شعروا أن ظروف المرحلـــة الجديـــدة تفرض عليهم مسؤوليات متعددة تحتم عليهم ان يخرجوا من رباطاتهم ، لان مهمـــتهم لـــم تعد منحصرة في الوعظ والتدريس ، بل تعد ذلك الى الأشراف على سير قطاع واسع من قطاعات الدولة ، وهكذا اصبح الفقهاء رجال الدولـــة يخططـــون لسياســـتها ويتحملـــون مسؤولية حماية كيانها فمهمة الفقيه اذن غدت ارشاد الأمير في سياسته العامـــة وتطبيـــق التشريع المالكي وبعبارة أخرى فقد امسك الفقهاء بأيديهم الجانب الديني والسياســـي مـــن أمور الدولة المرابطية على حد سواء[٨] .

كان الفقهاء في دولة المرابطين لاسيما في عهد أمير المسلمين علي بن يوســـف بـــن تاشفين يؤدون دوراً كبيراً وملحوظاً في توجيه السياسة المرابطية ، بالاتجاه الديني الـــذي يعتمدونه فقد كان امير المسلمين علي بن يوسف شديد التأثر بهؤلاء الفقهاء ، فعلى الـــرغم من اتصافه بالعدل والتدين والفضل الا انه لم يكن من الحنكة السياسة والقـــوة ، اذ انجـــر وراءهم والتزم بأقوالهم وآراءهم الفقهية[٩] ، ولم يأخذ نفســـه بمراقبـــة الـــولاة والقضـــاة ومتابعتهم وتفقد تصرفاتهم ، وانسياقه هذا وراء الفقهاء دفعه الى اقتراف عمل لـــم يكـــن عليه ان يقترفه وهـــو حـــرق كتـــاب (احياء علـــوم الـــدين) للأمـــام الغزالـــي (ت : ٥٠٥هـــ)[١٠]. (سيتم الحديث عن هذا الموضوع بشكل مفصل) .

كانت دولة المرابطين بعد ان مضى على قيامها وقت طويل قد بدأ الفساد يـــدب فـــي اوصالها وبدأت الدعوة التي وضع اسسها عبد الله بن ياســـين (ت : ٤٥١هـــ) وبناهـــا بدمائه ودماء أعوانه من المرابطين تفقد آثرها في نفوس القوم .

انصرف الأمير علي بن يوسف عن امور الحكم الى الانقطاع للعبادة ، فأزداد عتـــو الفقهاء وسيطروا على الحياة العامة في المغرب والاندلس ، وكان بيدهم تصريف شـــؤون الدولة أذ كان الامير علي بن يوسف ((لا يقطع امراً في جميع أمور مملكته دون مشاورة

الفقهاء ، فكان اذا ولى أحداً من قضاته ، كان فيما يعهد اليه الا يقطع امراً ولا يبت حكمه في صغير من الامور ولا كبير الا بمحضر اربعة من الفقهاء ، فبلغ الفقهاء في ايامه مبلغاً عظيماً...))[١١] .

ان هذا الاهتمام من قبل الامير علي بن يوسف بالفقهاء ، وكان نتيجة طبيعية لنوع العلاقة التي ربطت بينهما ، فقد كان تأسيس دولة المرابطين بأيعاز من الفقيه المالكي عبد الله بن ياسين ، اذ كان ((دولاب ادارتهم يدور بسواعد الفقهاء))[١٢] من اتباع الأمام مالك بن انس (ت : ١٧٩هـ) (رضي الله عنه) ، الذين يعتمدون على فروع هذا المذهب دون اصوله التي تتمثل بالقرآن الكريم والسنة النبوية في استنباطهم للأحكام الشرعية ، واكتفى هؤلاء الفقهاء بتلك الاحاديث الموجودة في كتب الفروع وجعلوها مرجعهم الوحيد من غير تحفظ[١٣] .

كان الأمير علي بن يوسف نتيجة لا لتزامه المذهب المالكي وتبنيه فروع هذا المذهب اذ ((لم يكن يقرب اليه .. ويحظى عنده الا من علم علم الفروع ، اعني فروع مذهب مالك ، فنفقت في ذلك الزمان كتب المذهب وعمل بمقتضاها ونبذ ما سواها ، وكثر ذلك حتى نسي النظر في كتاب الله وحديث رسول الله))[١٤] ، وهكذا بلغ الفقهاء المالكية مبلغاً عظيماً على ايام أمير المسلمين علي بن يوسف لم يبلغوا مثله في الصدر الاول من فتح الاندلس فكثرت لذلك اموالهم وانتعشت مكاسبهم ، حتى عبر عن هذا احد الشعراء الاندلسيين بقوله :

آهل الرياء لبستموا ناموسكم كالذئب ادلج في الظلام العاتم
فملكتموا الدنيا بمذهب مالك وقسمتموا الأموال بأبن القاسم
وركبتموا شهب الدواب بأشهبٍ وبأصبغ صغت لكم في العالم [١٥]

كان المرابطون والمتشدقون بالفقه المالكي قد حرموا دراسة علم الكلام[١٦] ، في مدارسهم ومكاتبهم في ارجاء الدولة كافة لاسيما حاضرتهم مراكش لانه ((علم يتضمن الحجاج عن العقائد الايمانية بالادلة العقلية والرد على المبتدعين والمنحرفين في الاعتقاد عن مذاهب السلف وأهل السنة))[١٧] ، وقد اخذ اولئك الفقهاء بتفسير المتشابه من الآيات القرآنية كقوله تعالى:] **! " # $ % & ' ( ) * +** Z[١٨] ، كان تفسيرهم لهذه الاية الكريمة تفسيراً حرفياً ، وهم بهذا قد اتصفوا بالتجسيم القاضي بتشبيه الله

سبحانه وتعالى بالبشر ، فكانوا يقفون عند ظواهر المعاني ولا يتعدونها وهذا لا يجوز[١٩]، وكقوله] 1 2 3 4 5 6 7 Z[٢٠] ، وبهذا يكون الفقهاء المرابطون اعداءاً لتأويل المتشابه من الايات القرآنية كامامهم مالك بن انس (رضي الله عنه) الذي قال فيه الشهرستاني: ((اما السلف الذين لم يتعرضوا للتأويل ولا استهدفوا للتشبيه فمنهم مالك بن انس (رضي الله عنه) اذ قال : الا ستواء معلوم والكيفية مجهولة والأيمان بـه واجـب والسؤال عنه بدعة))[٢١] .

مما سبق جاءت معاداة المرابطين للتأويل في المتشابه وتجسيمهم للذات الإلهية ، ومن هذا المنعقد ــ التجسيم ــ اخذ محمد بن تـومرت (ت : ٥٢٤هـ) مؤسـس الدولـة الموحدية التي قامت على أنقاض الدولة المرابطية الطعن في العقيدة المرابطية واخذ يعـد العدة للانقضاض على السلطة المرابطية ، اذ قرن ابن تومرت المرابطين (المجسـمين) باليهود والمجوس في وجوب مخالفتهم[٢٢] ، محرضاً الناس على عدم طـاعتهم وفقهـائهم لان ولاية الامير علي بن يوسف غير منطبقة عليهم حسب اعتقاده ولا ينطبق عليهم قولـه تعالى:] Ð Ï Î Í Ì Ë Ê Z[٢٣]. ان المنطلق الذي انطلق منه ابن تـومرت في مواجهته لنفوذ الفقهاء وتحكمهم في أمور الدولة السياسية ، هو دراسته لعلم الأصـول القائم على دراسة كتاب الله وسنة نبيه (صلى الله عليه وسلم) أثناء أقامته فـي المشـرق على يد كبار العلماء امثال : الأمام الغزالي وأبي بكر الطرطوشي وأبـي بكـر الشاشـي وغيرهم من الذين اهتموا بعلم الأصول[٢٤].

ان اصطدام ابن تومرت بالفقهاء المرابطين امر طبيعي اذ انهم طالمـا تناسـوا علـم الأصول وبالغوا في اهتمامهم بعلم الفروع الذي ((يقتصر على دراسة فرائض العبـادات والمعاملات واحكامها والحدود والاقضية ، او بعبارة اخرى على دراسة الجانب العملـي والدنيوي من الشريعة))[٢٥].

تمكن الفقهاء الذين ساهموا في رسم الإطار السياسي العـام للسـلطة المرابطيـة أن يؤثروا سلباً في شخصية الأمير علي بن يوسف إذ اقنعوه ان يقترف عملاً قد اخل بسمعته وسمعة الـدولة المرابطية اذ امـر بايعاز منهم عـام ٥٠٣هـ / ١١٠٩م بـأحراق كتاب (إحياء علوم الدين) للأمام ابي حامد الغزالي على مرأى من النـاس فـي سـاحة المسجد الجامع في قرطبة[٢٦].

احراق كتاب احياء علوم الدين :

ان مسألة حرق كتاب إحياء علوم الدين للامام الغزالي قد أثارت جدلاً علمياً بين فقهاء المغرب والأندلس وعلمائهم ، إذ صدرت فتوى من قبل فقهاء المغرب والأندلس متمثلة بالقاضي ابن حمدين (ت : ٥٠٨ هـ)[٢٧] ، بحرق هذا الكتاب ، وقد عرضت هذه الفتوى بين يدي أمير المسلمين علي بن يوسف ونالت استحسانه وموافقته عام (٥٠٣هـ / ١١٠٩م)[٢٨] .

نفذ أمر الحرق هذا في قرطبة على الباب الغربي من المسجد الجامع في المدينة بحضور أعيان الناس وعامتهم واخذ المرابطون يطاردون كل من يمتلك نسخة من كتاب الإحياء وأمروا بتفتيش المكتبات العامة والخاصة بحثاً عنه ، أمر علي بن يوسف بمنع دخول جميع كتب الإمام الغزالي الى بلاد المغرب العربي[٢٩] ، واصدر امراً بأنزال اشد العقوبات على من وجد بحوزته نسخة من هذا الكتاب وتحليف من أنكره بالإيمان المغلظة كالطلاق وغيره[٣٠] .

أن عملية الحرق والتفتيش التي ساندها الأمير علي بن يوسف ، ما هي الا دليل على انقياده وراء أراء الفقهاء وسلطانهم[٣١] ، وكذلك يدل هذا الأسلوب من أساليب التفتيش على ((الحالة النفسية التي فرضت كأنها قاعدة على إنحاء امبراطورية واسعة لا يحرص الفقهاء فيها على التدخل في شؤون الحكومة فحسب وإنما يملون ايضاً على الأمير اكثر احكامهم))[٣٢].

والجدير بالذكر انه كانت هناك علاقة طيبة بين الأمير يوسف بن تاشفين والأمام الغزالي حيث عزم الأخير على زيارة الأول في مراكش حاضرة الدولة المرابطية عام (٥٠٠هـ / ١١٠٦ م) وعند وصول الأمام الغزالي إلى الإسكندرية جاءه نعي الأمير يوسف بن تاشفين فعدل عن رحلته إلى بلاد المغرب حيث مراكش[٣٣] ، ورداً على هذه العلاقة بين الرجلين صحب الأمير علي بن يوسف صحبة العداوة والتنكر للود الكبير والاحترام المتبادل بين ابيه والإمام الغزالي فأوقد في صحون مساجد الأندلس والمغرب نيراناً كان وقودها أوراق كتاب إحياء علوم الدين .

أسباب حرق كتاب احياء علوم الدين :

لقد حاول الباحثون ان يعللوا أسباب حرق المرابطين لكتاب الإحياء ، فقد قال صاحب كتاب إزهار البساتين : ((وكان الغزالي في نظرهم كافراً لأنه خلا منهم ، كان يؤول في تفسيره القرآن فمنعوا كتبه واحرقوها في مدن المغرب كله والأندلس))[٣٤] .

اما احمد أمين فقد علل سبب ذلك الحرق بقوله : ((وكان يوسف بن تاشفين ذا نزعة دينية تخالف نزعة الغزالي ذكره منه افراطه في الدعوة إلى محاسبة النفس فأصدر قاضي قرطبة وزملاؤه فتوى بأن الغزالي مبتدع وزنديق وعلى ذلك احرقوا كتاب إحياء علوم الدين))[٣٥].

انني في هذا اختلف مع امين إذ جعل عملية الحرق على عهد الأمير يوسف بن تاشفين وهذا بعيد عن الحقيقة إذ لم تذكر لنا المصادر التاريخية إن عملية الإحراق تمت في عهد يوسف بن تاشفين لأنه قد توفي عام (٥٠٠هـ /١١٠٩م) هذا فضلاً عن العلاقة الحميمة التي ربطت بين الإمام الغزالي ويوسف بن تاشفين .

إما عنان فقد ادلى بدلوه فقال : ((والحقيقة ان حملة الفقهاء المرابطين على كتاب الإحياء لم تكن راجعة لأمور تتعلق بالعقيدة او لأنه يخالف الدين في شيء ، بل كانت ترجع قبل كل شيء إلى ما ورد فيه من حملة لاذعة على علماء الفروع ، والتنوية بجهلهم وسخف مجادلتهم السطحية ووصف الغزالي لهم بأنهم مجانين ، وكونهم يجهلون علم الأصول الذي ينوه الغزالي بأهميته وعظيم قدره))[٣٦].

اما الهرفي فيقول في هذا الشأن : ((يبدو ان الإحراق يعود الى اشتداد الصراع بين المتصوفة والفقهاء ، وبما ان كتاب الإحياء قد جمع بين إحكام الورع وآداب المتصوفة فقد كان خطراً على الفقهاء لأنه سيرجح كفة المتصوفة ولذلك افتى الفقهاء بأحراقه))[٣٧] .

اما حسن ابراهيم حسن فقد علل سبب إحراق الكتاب على انه كان صوفياً في روحه يسير على الفلسفة الكلامية التي ينفر منها المالكية وكذلك ان الاتجاه الفقهي في هذا الكتاب يسير على المذهب الشافعي[٣٨].

كانت تلك هي اراء المؤرخين في سبب إحراق كتاب الإحياء فبالأضافة إلى ما ذكر من أسباب أجد إن المرابطين فقهاء وساسة قد كافحوا من اجل توحيد المغرب سياسياً ومذهبياً وترسيخ أركان المذهب المالكي محاربين في سبيل ذلك المذاهب التي حاولت

الانتشار في بلاد المغرب والأندلس فلذلك لـيس مـن المعقـول ان يتغافـل المرابطـون وفقهاؤهم عن كتاب الاحياء لانه سوف يسبب لهم اختلافاً في الآراء الفقهية التـي طالمـا حاولوا ان تصب في اطار المذهب المالكي دون غيره ، هـذا فضـلاً عـن ان الفقهـاء المرابطين قد شعروا بأنهم المقصودون حين اشار الإمام الغزالي إلى إن علم الفقه قد نقـل الى معان مذمومة وانه اصبح من علوم الدنيا لا الآخرة علـى ايـدي بعـض الفقهـاء ، وخصص لمعرفة الفروع الغريبة في الفتاوى والوقوف على دقـائق اسـبابها واسـتكثار الكلام فيها ، وحفظ المقالات المتعلقة بها فمن كان اشد تعميقاً فيها وأكثر عملاً بهـا يقـال هو الافقه ، واصبح اسم الفقه يطلق على من لا يحيط من علوم الشرع بشيء سوى امـور جدلية في مسائل خلافية فيعد بذلك من فحول العلماء مع جهل بالتفسير والإخبار[٣٩] .

((والواقع ان هؤلاء الفقهاء كانوا بحق نقله اخبار وحملة اسـفار لا يفقهـون))[٤٠].

وبهذا وجد العلماء المرابطون كتاب الإحياء مرأة عاكسة تعكس لهم عيبوبهم وما هم عليه من جمود فكري فوجب حرقه ، على الرغم من موجة الغضب العارمة التي لحقت بكتاب الإحياء ومطاردته في مكتبات المغرب والاندلس الخاصة والعامة من قبل فقهاء المرابطين وحكامهم الا انه كان هناك من يعارض عملية احراق هذا الكتاب من قبل فقهـاء عرفـوا باعتدالهم الديني[٤١].

معارضة احراق كتاب الأحياء :

كان في بلاد المغرب والأندلس انصار للامام الغزالي وكتابه الاحياء فلذلك ان عملية الاحراق هذه لم تمر دون معارضة من قبل بعض فقهاء المغرب والاندلس وعامتهم ، وقد يبرز هذا جلياً عندما مدح أهل المغرب الامام الغزالي وكتابه الاحياء بأبيات شعرية قـالوا فيها:

آبا حامد انت المخصص بالحمد وانت الذي علمتنا سـنن الرشـد

وضعت لنا الاحياء يحيى نفوسنا وينقذنا من ربقة المارد المردى[٤٢]

وكان من جملة الفقهاء الذين وقفوا موقفاً مضاداً لإحراق كتاب الإحياء علي بن محمد الجذامي (ت : ٥٠٩هـ) ويعرف بالبرجي وهو من آهل المرية وكان قد افتى بتأديب من يحرق كتاب الإحياء لأنه مال مسلم ، وعندما علم القاضي بن حمـدين (صـاحب فتـوى

الإحراق) بفتوه اصدر امراً بعزله عن منصبه اذ كان انذاك مشاوراً للاحكام في مدينة المرية[٤٣].

وكذلك من الذين ناصروا الإحياء كان ابو الفضل النحوي (ت :٥١٣هـ)[٤٤] ، وقد كتب لأمير المسلمين علي بن يوسف بشأن معارضته لمطاردة هذا الكتاب ، وكان النحوي قد افتى بأن الإيمان التي فرضت اثناء عملية التفتيش عن كتاب الإحياء ايمان لا تلزم اصحابها . وقال النحوي بهذا الشأن : ((وددت أني لم انظر في عمري سوى كتاب الإحياء))[٤٥] ، وكان النحوي قد استنسخ كتاب الإحياء ثلاثين جزءاً فأذا دخل شهر رمضان قرأ في كل يوم جزءاً[٤٦] . وكذلك كان من انتصر للغزالي سيد علي بن حزره[٤٧] ، الذي اعتكف في بيته لقراءة كتاب الإحياء لمدة سنة[٤٨].

ان مطاردة كتاب إحياء علوم الدين لم تكن في عهد الأمير علي بن يوسف بن تاشفين فحسب بل تعدت ذلك العهد واستمرت المطاردة حتى عهد تاشفين بن علي بن يوسف وهذا ما اوضحته احدى الرسائل التي ارسلها الأمير تاشفين الى اهل بلنسية والتي كانت تنص على احراق كتاب الإحياء ومما جاء فيها : ((... ومتى عثرتم على كتاب بدعة او صاحب بدعة وخاصة وفقكم الله ، كتب ابي حامد الغزالي ، فليتتبع اثرها ، وليقطع بالحرق المتتابع خبرها ويبحث عليها ، وتغلظ الأيمان على من يتهم بكتمانها))[٤٩] .

رغم تأكيد اغلب المؤرخين القدامى واتفاقهم على ما جرى لكتاب الاحياء فقد شك بعضهم في صحة هذه الرواية ونسبوا عملية الحرق الى الموحدين اتباع ابن تومرت ، على انها من ابتداعهم بقصد التحمل على المرابطين وفقهائهم ، ومن اجل ربط اسم ابن تومرت بأسم الامام الغزالي[٥٠].

ذكرت المصادر ان من اخبر الإمام الغزالي بالعمل الذي اقترفه المرابطون هو ابن تومرت عندما التقى به في بغداد عند رحيله من بلاد المغرب الى المشرق حيث بغداد مأوى الإمام الغزالي انذاك طلباً للعلم حسبما يذكر لنا بعض المؤرخين[٥١] ، اذ تقول الرواية التي ادلى بها صاحب الحلل الموشية : ((... كنت ببغداد بمدرسة الشيخ ابي حامد الغزالي ، فجاءه رجل كث اللحية على رأسه كرزية صوف ، فدخل المدرسة واقبل على الشيخ ابي حامد فسلم عليه ، فقال : مم الرجل فقال : من أهل المغرب الأقصى . قال : أدخلت قرطبة ؟ قال : نعم. قال : كيف فقهاؤها ؟ قال : بخير . قال : هل بلغهم

كتاب الإحياء ؟ قال : نعم . قال : فماذا قالوا عنه ؟ فصمت الرجل حياء . فعزم عليه ليقولن ، فأطرق رأسه واخبره بأحراقه وبالقصة كما جرت ...))[٥٢] .

يبدو ان الخبر الذي اخبره ابن تومرت للإمام الغزالي قد اثار غضبه على السلطة المرابطية وفقهائها الأمر الذي أدى بالإمام الغزالي إن يدعو الله تحرقاً منه بزوال ملكهم وافول دولتهم حيث قال عندما سمع ذلك : ((اللهم مزق ملكهم كما مزقوه واذهب دولتهم كما احرقوه...))[٥٣] .

بعد ان دعا الإمام الغزالي من الله تعالى بتمزيق ملكهم وزوال دولتهم اثناء حضور ابن تومرت مجلسه اذ طلب منه ــ ابن تومرت ــ ان يكون ذلك على يده اذ قال ((...ايها الإمام ادع الله ان يجعل ذلك على يدي ...))[٥٤] ، فايده بذلك[٥٥] . من هنا صمم ابن تومرت بالعودة إلى بلاده (المغرب) بعد إن اكتسب علماً علمه على يد الإمام الغزالي ، اعتقاداً منه بأن المغرب بأمس الحاجة الى شخص مثله ، كي ينقذ المغرب من العقيدة القائمة على منع التأويل ويصرف الناس عن المذهب المالكي الذي يسود المغرب[٥٦] .

ما ان عاد ابن تومرت الى بلاد المغرب حتى أخذ يهاجم المرابطين فقهاء وساسة محرضاً عامة الناس عليهم بأنهم اناس مجسمون لذات الله تعالى لا يرجعون الى الأصول معتمدين على الفروع ، ونتيجة لهذا التف حوله الكثير من اهل المغرب[٥٧] ، إذ اوغر قلوبهم على الفقهاء والسلطة الحاكمة طارحاً امامهم حادثة إحراق كتاب الإحياء والجمود الفكري الذي كانوا عليه انذاك .

ومن هذا المنطلق الذي انطلق منه ابن تومرت في مواجهة الدولة المرابطية تمكن من زعزعة اركان الدولة ومن ثم وبمرور الوقت تمكن هو واتباعه من بعده من الموحدين من اسقاطها ، اذ ان الفتوى التي صدرت بشأن حرق كتاب الإحياء لها الوقع الكبير في افول نجم المرابطين وزوال ملكهم حتى عد المؤرخ ابن القطان حادث الإحراق سبباً لسقوط دولة المرابطين[٥٨].

وبهذا العمل الذي اقترفه الأمير علي بن يوسف وفقهاء الدولة أصيبت سيرة الدولة المرابطية بشائبه .. لا يمكن ان يغفر لها التاريخ إذ لم يكن لديهم المبررات الكافية

والمقنعة قترافهم هذا العمل فان هذه الحادثة إن دلت على شيء فأنما تدل على تأخر الفكر المغربي في عهد المرابطين لأقتصارهم على الفكر المالكي الذي لا يقبل التأويل .

ونتيجة لكل ما سبق ابتعد المرابطون وفقهاؤهم عن الحركة الفكرية المستنيرة ، لاسيما عند مطاردتهم لكتاب الإحياء وحرقه ، ومبالغتهم وعنايتهم بكتب الفروع ، اذ عملوا بمقتضاها ونبذوا ما سواها ، وهذا الابتعاد عن كتاب الله والتمسك بمذهب الإمام مالك وفروعه يعد في رأيي عاملاً من عوامل ضعف الدولة واميرها علي بن يوسف ، وهذا العامل لا يقل شأناً عن العوامل الأخرى التي ساهمت في ضعف الدولة ومن ثم سقوطها .

الخاتمة

بعد ان تم هذا البحث بحمد الله وشكره على هذه الصورة لا بد لي إن اسجل خاتمة أبين فيها أهم الاستنتاجات التي توصلت اليها والتي كانت مثار جدل وحوار مختلف بين المؤرخين:

- من خلال الاطلاع على الظروف التي احاطت بالدولة المرابطية تبين أنها كانت واقعة تحت تأثير سلطة الفقهاء وانها كانت لا تتخذ قراراً الا بحضور الفقهاء وعليه فأن دولاب ادراتهم كان يدور بسواعد الفقهاء .
- كان للفقهاء اثر كبير على شخصية أمير المسلمين علي بن يوسف إذ لم يكن يقرب إليه الا من علم علم فروع الأمام مالك ، وقد املوا عليه قرارات خطيرة على المستوى الديني لا سيما إحراق كتاب (إحياء علوم الدين) ، وكان لأمر الإحراق هذا نتائج خطيرة على المستوى السياسي اذ استغل ابن تومرت هذه الحادثة وانطلق من خلالها ومن خلال اقتصار افكار الفقهاء على فروع الفقه المالكي يحارب السلطة المرابطية .
- اثبتنا في هذا البحث إن عملية إحراق كتاب إحياء علوم الدين من قبل السلطة المرابطية كانت شائبة إصابت سيرة الدولة المرابطية اذ لم يكن للفقهاء والسلطة الحاكمة مبررات للقيام بهذا العمل لاسيما وان الدولة العربية الإسلامية لم يسبق لها إن حجرت على العقل البشري رغم الاختلاف الحاصل بين الفقهاء في آرائهم الفقهية.

قائمة المصادر

١. المراكشي ، عبد الواحد (ت : ٤٦٧هـ) : المعجب في تلخيص اخبار المغرب ، ضبطه وحققه : محمد سعيد العريان ومحمد العربي العلمي ، مطبعة الاستقامة ، (القاهرة ١٩٤٩)، ص١٧١ ؛ شلبي ، احمد : التاريخ الاسلامي والحضارة الاسلامية، ط٢ ، مكتبة النهضة المصرية ، (القاهرة : ١٩٦٦) ، ج٤ ، ص١٨٣ .

٢. المراكشي ، المعجب ، ص١٧٢ .

٣. ابن القطان ، علي بن محمد بن عبد الملك بن يحيى الكتامي (عاش في القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي) : نظم الجمان وواضح البيان فيما سلف من اخبار الزمان ، تحقيق : محمود علي مكي ، منشورات كلية الأدب والعلوم الانسانية ، جامعة محمد الخامس ، المطبعة المهدية ، (تطوان ، د . ت) ، جـ٦ ، ص.١٥

٤. عياض ، القاضي ابو الفضل (ت : ٥٤٤هـ) : ترتيب المدارك ، نشر وزارة الأوقاف، (المغرب ، ١٩٥٥) ، جـ٥ ، ص٦١ .

٥. عياض : ترتيب المدارك ، جـ٥ ، ٥٧ .

٦. شقور ، عبد السلام : القاضي عياض الأديب ، نشر دار الفكر المغربي ، (طنجة ، ١٠٨٣) ، ص٢٢ .

٧. بنشنهو ، عبد الحميد بن أبي زيان : النظام الاداري بالمغرب ، مطبعة الرسال ، الرباط، ١٩٦٢) ، ص ٢٠ ــ ٢١ ؛ شقور : القاضي عياض ، ص٢٢ .

٨. زغلول ، سعد : محمد بن تومرت وحركة التجديد في المغرب والاندلس ، منشورات جامعة بيروت العربية ، (بيروت ، ١٩٧٣) ، ص١٤ .

٩. المراكشي ، المعجب ، ص١٧١ ؛ شلبي ، احمد : التاريخ الاسلامي والحضارة الاسلامية، ط٢ ، مكتبة النهضة المصرية ، (القاهرة : ١٩٦٦) ، ج٤ ، ص١٨٣ .

١٠. ابن القطان ، نظم الجمان ، جـ٦ ، ص١٥ ؛ عنان ، محمد عبد الله : عصر المرابطين والموحدين في المغرب والاندلس ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، (القاهرة ، ١٩٦٤) ، ج١ ، ص٧٩.

١١. المراكشي : المعجب ، ص١٧١ ؛ امين ، احمد : ظهر الاسلام ، مكتبة النهضة المصرية ، (القاهرة ، د . ت) ، ج٣ ، ص٣٨ .

١٢. الفاسي، عبد الرحمن: خطة الحسبة في النظر والتطبيق والتدوين، مجلة المناهل، العدد ٢١، (الرباط، ١٩٨١)، ص٢٧ ؛ الجراري ، التيار الفقهي المرابطي، ص.٣٢

١٣. سالم ، السيد عبد العزيز : المغرب الكبير ، دار النهضة العربية للطباعة والنشر ، (بيروت ، ١٩٨١) ، ج٢، ص٧٤٣ ؛ عبد البديع ، لطفي ، الاسلام في اسبانيا ، لجنة التأليف والترجمة والنشر، المكتبة المصرية، (القاهرة ، ١٩٥٨)، ص٤٣، صبحي، احمد محمود: في علم الكلام، ط٤، مؤسسة الثقافة الجامعية، مصر (الاسكندرية ، ١٩٨٢) ، ص١٧٢ .

١٤. المراكشي: المعجب، ص١٧١ ؛ زغلول ، محمد بن تومرت وحركة التجديد ، ص١٤ .

١٥. المراكشي : المعجب ، ص١٧١ ؛ زغلول : محمد بن تومرت وحركة التجديد ، ص١٤؛ أمين : ظهر الاسلام ، ج٣ ، ص١٥٢ .

١٦. صبحي : في علم الكلام ، ص١٧٢ .

١٧. ابن خلدون ، عبد الرحمن بن محمد الحضرمي (ت : ٨٠٨هـ) : المقدمة ، تحقيق حجر عاصي ، منشورات دار ومكتبة الهلال ، (بيروت ، ١٩٨٦) ، ص٢٩ .

١٨. سورة الفتح : اية ، ١٠ .

١٩. الريحاني ، امين : المغرب الاقصى ، دار المعارف للطباعة والنشر ، (مصر ، ١٩٥٢) ،ج٢ ، ص٣٦٢ ؛ عبد البديع : الاسلام في اسبانيا ، ص٤٤ .

٢٠. سورة الشورى : اية ، ١١ .

٢١. الشهرستاني، ابو الفتح محمد بن عبد الكريم (ت: ٥٤٨هـ): الملل والنحل، صححه وعلق عليه: احمد فهمي محمد، مكتبة الحسني التجارية، (القاهرة، ١٩٤٨)، ج١، ص١٢٥ .

٢٢. ابن تومرت ، محمد بن عبد الله (ت : ٥٢٤ هـ): اعز ما يطلب ، المؤسسة الوطنية للكتاب ، (الجزائر ، ١٩٨٥) ، ص٢٤٧ .

٢٣. سورة النساء : اية ، ٥٩ .

٢٤. ابن القطان : نظم الجمان ، ج٦ ، ص١٢ ؛ الجراري : التيار الفقهي المرابطي ، ص١٢٣ .

٢٥. عنان : عصر المرابطين والموحدين ، ج١ ، ص١٧١ .
٢٦. ابن عذاري ، ابو العباس احمد بن محمد المراكشي (ت : ٧١٢هـ) : البيان المغرب في اخبار الاندلس والمغرب ، كتب التعليقات : احسان عباس ، دار الثقافة للنشر والتوزيع، (بيروت ، ١٩٦٧) ، ج٤ ، ص٥٩ ؛ عنان ، عصر المرابطين والموحدين ، ج١ ، ص٧٩ .
٢٧. هو محمد بن علي بن عبد العزيز بن حمدين التغلبي ، وهو قاضي الجماعة بقرطبة يكنى ابا عبد الله ، وكان من اهل العلم حافظاً ذكياً اديباً شاعراً . وقد تولى القضاء في قرطبة عام ٤٩٠هـ، وقد توفي عام ٥٠٨هـ . ابن بشكوال، ابو القاسم خلف بن عبد الملك (ت : ٥٧٨هـ): كتاب الصلة، تحقيق: ابراهيم الابياري، دار الكتاب اللبناني، (بيروت ، ١٩٨٨)، ج٣، ص٨٣١؛ ابن عذاري: البيان المغرب، ج٤، ص٥٩ .
٢٨. مجهول : الحلل الموشية في ذكر الاخبار المراكشية، تحقيق: سهيل زكار وعبدالقادر زمامة ، دار الرشاد الحديثة ، مطبعة النجاح الجديدة، (الدار البيضاء، ١٩٧٩) ، ص١٠٤ ؛ ابن القطان : نظم الجمان ، ج٦ ، ص١٤ ؛ ابن زيدان، عبد الرحمن : اتحاف اعلام الناس بجمال اخبار حاضرة مكناس، المطبعة الوطنية، (الرباط ، ١٩٢٩)، ج١ ، ص٨٨ .
٢٩. بروفنسال ، ليفي : الاسلام في المغرب والاندلس ، ترجمة : السيد محمود عبد العزيز سالم ومحمد صلاح الدين حلمي ، مراجعة ، لطفي عبد البديع ، مكتبة نهضة مصر للطباعة والنشر ، (القاهرة ، ١٩٩٠) ، ص٢٥٣ .
٣٠. ابن القطان: نظم الجمان، ج٦، ص١٤، ١٥؛ ابن ابي دينار، ابو عبد الله محمد بن القاسم القيرواني (ت : ١١١٠هـ): المؤنس في اخبار افريقيا وتونس، ط٢، تحقيق: محمد شمام (تونس ، ١٩٦٧) ، ص١١١ ؛ صبحي: علم الكلام ، ج٢ ، ص.١٧٣
٣١. الجراري : التيار الفقهي المرابطي ، ص١٢٤ .
٣٢. بروفنسال ، الاسلام في المغرب والاندلس ، ص٢٥٣ .
٣٣. ابن ابي دينار: المؤنس، ص١١٠؛ عنان: عصر المرابطين والموحدين، ج١، ص٧٨ .

٣٤. طاروا ، جان وجيرام : ازهار البساتين في اخبار الاندلس والمغرب على عهد المرابطين والموحدين ، ترجمة وتعليق : احمد ملا فريح ومحمد الفاسي ، المطبعة الوطنية ، (الرباط، ١٣٤٩هـ) ، ص١٠٠ .

٣٥. امين : ظهر الاسلام ، ج٣ ، ٣٧ .

٣٦. عنان : عصر المرابطين والموحدين ، ج١ ، ص٧٩ .

٣٧. الهرفي ، سلامة محمد سلمان : دولة المرابطين في عهد علي بن يوسف بن تاشفين، دار الندوة الجديدة ، (بيروت ، ١٩٨٥) ، ص٣٢٦ ــ ٣٢٧ .

٣٨. حسن ، حسن ابراهيم : تاريخ الاسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي ، مكتبة النهضة العربية المصرية ، (القاهرة ، ١٩٦٧) ، ج٤ ، ص٤٥٦ .

٣٩. الجراري ، عباس : التيار الفقهي المرابطي، مجلة دعوة الحق ، العدد٤ ، (الرباط ، ١٩٧٤) ، ص٣٢ .

٤٠. الغزالي : الامام ابو حامد محمد بن محمد (ت : ٥٠٥ هـ) : احياء علوم الدين ، دار المعرفة للطباعة والنشر ، (بيروت ، د . ت) ، ج١ ، ص٢٨ .

٤١. صبحي : في علم الكلام ، ج٢ ، ص١٧٣ .

٤٢. التادلي ، ابو يعقوب يوسف بن يحيى بن عيسى (ت : ٦٢٨هـ) : التشوف الى رجال التصوف ، اعتنى بنشره وتصحيحه : اد لف فور ، مطبوعات افريقيا الشمالية الفنية ، (الرباط ، ١٩٥٨) ، ص٧٣ ــ ٧٤ .

٤٣. الزبيدي ، محمد الحسني: اتحاف السادة المتقين بشرح احياء علوم الدين ، دار الفكر للطباعة والنشر ، (بلا ، د . ت) ، ج١ ، ٣١ .

٤٤. ابن الابار ، ابو عبد الله محمد بن عبد الله القضاعي (ت: ٦٥٩هـ): المعجم في اصحاب القاضي الصدفي، تحقيق : ابراهيم الابياري، دار الكتاب اللبناني، (بيروت، ١٩٨٨) ، ص٢٧٨ ؛ كنون ، عبد الله : النبوغ المغربي في الادب العربي ، ط٢ ، دار الكتاب اللبناني للطباعة والنشر ، مكتبة المدرسة ، (بيروت ، ١٩٦١) ، ج١ ، ص٧٠ .

٤٥. هو احمد بن عبد السيد بن علي النحوي البغدادي ، ويكنى ابو الفضل ، وكان اديباً له معرفة بالأدب والنحو وهو من قلعة بني حماد . القفطي ، الوزير جمال الدين ابي

الحسن علي بن يوسف : انباه الرواة على ابناء النحاة ، تحقيق : محمد ابـــو الفضـــل ابراهيم ، مطبعة دار الكتب المصرية ، (القاهرة ، (١٩٥٠)، ج١ ، ص٨٧ .

٤٦. التادلي ، التشوف الى رجال التصوف ، ص٧٣ ــ ٧٤ .

٤٧. التادلي : التشوف الى رجال التصوف ، ص٧٣ .

٤٨. هو ابو الحسن سيد علي بن حزرهم ، كان قد رحل الى المشرق اقام فترة في الشام، فالتقي هناك بالامام الغزالي ثم رجع الى مدينة فاس ومات فيها . التادلي : التشـــوف الى رجال التصوف ، ص٧٣ .

٤٩. ابن الابار : المعجم في اصحاب القاضي الصدفي ، ص٢٧٨ ؛ شـــقور : القاضـــي عياض، ص٤٧ .

٥٠. مؤنس ، حسين : نصوص سياسية عن فترة الانتقال من المرابطين الى الموحـــدين ، مجلة المعهد المصري ، العدد الاول ، المجلد الثالث ، (مدريد ، ١٩٥٥) ، ص١١٠، ١١٣ .

٥١. ابن ابي دينار : المؤنس ، ص١١١ .

٥٢. ابن ابي زرع ، ابو الحسن علي بن عبد الله الفاسي (ت : بعد ٧٢٦هـــ) : الانـــيس المطرب بروض القرطاس في اخبار ملوك المغـــرب وتـــاريخ مدينـــة فـــاس ، دار المنصور للطباعة ، (الرباط ، ١٩٧٢) ، ص١١٨ ؛ القلقشندي ، ابو العباس احمـــد بن علي (ت : ٨٢١ هـــ) : مآثر الانافة في معالم الخلافة ، تحقيق : عبـــد الســـتار احمد فراج ، وزارة الارشاد والانباء ، (الكويت ،١٩٦٤) ، ج٢ ، ص٢٥١ .

٥٣. مجهول : الحلل الموشية ، ص١٠٥ .

٥٤. مجهول : الحلل الموشية ، ص١٠٥ ؛ ابن القطان : نظم الجمان ، ج٦ ، ص١٧ .

٥٥. ابن عذاري : البيـــان المغـــرب ، ج٤ ، ص١٣٧ ؛ مجهـــول : الحلـــل الموشـــية ، ص١٠٥.

٥٦. مجهول : الحلل الموشية ، ص١٠٥ .

٥٧. حسن ابراهيم : تاريخ الاسلام السياسي ، ج٤ ، ص٢٩٥ .

٥٨. ابن ابي زرع : الانيس المطرب ، ص١٤٩ .